أبو الثناء الألوسي الكبير

« بمناسبة مرور مائة عام على وفاته »

للأستاذ محمود العبطة

— ٢ —

١ — مولد الألوسي الكبير :

ولد السيد محمود عبد الله الألوسي في بغداد في منتصف شعبان من عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) في دار أبيه بجانب الكرخ ، ووالده السيد عبد الله بن محمود ، والقارئ — ولا شك — قد عرف نسب العائلة الألوسية ولماذا انتسبت إلى ألوس وتضارب الأقوال في ذلك ، فلا نعود إليه ولا نكرر القول فيه ، أما أمه فهي — كما قلنا — صالحة بنت الشيخ حسين الشاوي من بيت علم وحسب ونسب . وسمي (محمودا) إحياء لاسم جده محمود بن درويش ، وعادة إحياء الأسماء عادة مستحبة عند العراقيين ، وعلى الأخص البغاددة منهم ، ولا تزال هذه العادة محترمة حتى الآن في البيوتات العريقة في العراق ، ولقب بعد مولده (بشهاب الدين) كما كني (بأبي الثناء) وهذه كتلك عادة أخرى لكل مولود جديد في بيوتات العلم والأدب في بغداد

وقد نظم أحد الشعراء الذي لم أقع على اسمه وتاريخ وفاته بيتين من الشعر على طريقة الحساب الشعري فقال :

لقد أشرق البدر السماوي مذ بدا ... سنا نوره من مشرق لاح بالجود

به كمل الدين الحنيف مؤرخ ... (تكملت الدنيا بميلاد محمود)

ب — وراثته :

فتح الألوسي عينيه في بيته ، وآثار النجابة والألمعية تلوح في حركاته وسكناته ، وبعد أن نما وترعرع ووعى ما حوله وما يحيط به ، درس مبادئ الخط ، وحفظ القرآن في بيته وعلى يد أمه وأبيه . . وعلى يد أبيه الذي هو رئيس المدرسين في بغداد درس (الأجرومية) في مبادئ النحو العربي ، ثم درس ألفية (ابن مالك) في النحو أيضا ، تناول بعدها كتب الفقه فقرأ (غاية الاختصار) في فقه الإمام الشافعي إمام العائلة التقليدي (فالمنظومة الرحبية) في الفرائض كما قرأ مقدمات الفقه الحنفي . ولم يبلغ الربيع العاشر من عمره الزاهر حتى أحاط علما بالنحو والفقه والمنطق والعلوم الأخرى (١) . لقد تشبع فتانا الألوسي في باكورة عمره من منهل العلم . إن روحه في هيام دائم مهما بلغ تحصيله العلمي ... وعلى هذا القياس فقد تتلمذ على جلة علماء البلد كعلي السويدي ومحمد أمين الحلي وخالد النقشبندي وعبد العزيز الشواف (٢) وعلي الزوري المهاري (٣) وحصل على الإجازة العالية من رئيس محدثي الشام في عصره عبد الرحمن الكزبري ومن مفتي بيروت عبد اللطيف فتح الله

إن الألوسي — كما نرى — تتلمذ على جلة علماء بلده بغداد ، وحصل على الإجازة بالعلم من علماء سورية ولبنان . وقد عثرت على أوراق مخطوطة كتبها الألوسي الترجم له ، ونقلها عنه أحد الألوسيين الآخرين ، وهذه الأوراق تلقي ضوءا نفاذا على هذه الفترة من حياة الألوسي ، إذ قال في بعض منها يصف حاله حين تحصيله العلمي ، ويذكر فيها وفاة أمه وحنو والده عليه (٤):

(وقد ماتت أمي قبله ، عليه الرحمة ، بمدة سنين ، فازداد حنوه علي بعدها ، بيد أنه لضيق ذات يده لم يوسع أكثر ، ولم يجملني أبهى بأثوابي أبناء أخوالي وأعمامي . . ومما اتفق أن بعت ثياب الشتاء لشراء قرطاس ؛ وطالعت على نور القمر حيث أعوزني نبراس، وكم قاسيت من شدائد، تذيب لادر درها الجلامد .)

من هذه السطور نلمح الألوسي الفتى الذي فقد أمه فوجد أبه أما له وأبا في حنوه ورعايته وحدبه ؛ بيد أن فقر أبيه منعه من التنعم في شبابه بالالباس واللذات ، شأنه شأن الشباب في كل جيل . وفي الفقرات الأخيرة من هذه السطور ، حيث يبيع الألوسي الشاب ثياب الشتاء ليشتري بثمنها أوراقا يستعين

(١) أعلام العراق ص : ٢٧

(٢) المصدر السابق

(٣) (مجموع أدبي) في مكتبة الأوقاف ببغداد (رقم : ٥٦٧٢) — مخطوطات

(٤) المصدر السابق

بها فى دراسته وشؤونه العلمية ويدرس على ضوء القمر ، ما يقرأه فى النهار على شيوخه . . . من هذه السطور نعلم درجة فقر هذه العائلة الكريمة التى اتخذت سبيل العلم رسالتها فى الحياة ، كما نرى أن الإرادة القوية والصبر على احتمال المكاره ، والحيلة فى الخروج من المآزق ، طرق مستقيمة فى الوصول إلى المطالب والغايات ، وهذه قد سار فيها الألوسى فكان فيها الأمثولة والقدوة . والأستاذ الأخير الذى تتلمذ عليه أبو الثناء وارتشف من مناهل علمه وفضله هو الشيخ على علاء الدين الموصلى الذى مكث يتتلمذ عليه أربع عشرة سنة كان له فيها خير معين على تفهم دقائق العلوم المنقول منها والمعقول . وأستاذه الشيخ الموصلى كان حاد الذكاء ، حاد المزاج مما ، ولهذا نرى قلة من طلبة العلم من تقرب إليه ودرس عليه ، وعبقرية التلميذ النجيب تلاقت مع عبقرية الأستاذ القدير ، إذ أن عقول العباقرة تلتقى على ما يقول الفرنسيون ، فأمسى مقام الشيخ على فى تقويم مواهب الألوسى وصقل ملكاته كمقام أبيه السيد عبد الله ، أستاذه الاول ومعلمه فى بيته . والألوسى يذكره بالخير ويشيد بفضله ويترحم عليه ، كما أنه أرخ حياته فى المقامة الثانية من (مقامات الألوسى(٥)) وأرخها أيضا فى (غرائب الاغتراب) وفى غيرها من مؤلفاته المختلفة . . ودرس الألوسى على الشيخ المذكور فى المدرسة الخاتونية الواقعة فى باب (الشيخ) من رصافة بغداد

ج — وظائفه العلمية :

لعل أول وظيفة نالها أبو الثناء أثناء تتلمذه على أساتيذ زمانه وعلماء عصره ، أنه ألف رسالة فى أحد العلوم لداود باشا الوالى وقد أعجبته كل الإعجاب فوظف له فى كل يوم درهمين من وقف جامع (محمد الفضل)(٦) وهذه الوظيفة الأولى قد أعانته أثناء تحصيله العلمى فى عيشه ، والقارئ يعلم درجة حاجته وفاقته ، أصبح بعدها أو أثناءها محافظا لمكتبة مدرسة الشهيد (على باشا) التى كان أبوه أحد أساتذتها (٧) ثم أصبح مدرسا فى بيت خاله الحاج عبد الفتاح الراوى فى جانب الكرخ (٨) وبعد أن نال الإجازة فى التدريس من أستاذه علاء الدين فى المدرسة الخاتونية فى باب الشيخ أقامت السيدة (عاتكة) من محسنات زمانها مأدبة حافلة حضرها جلة علماء بغداد وفضلاؤها وأعيانها وكان من جملة الحاضرين رئيس صنف التجار نعمان الياجه جى البغدادى ، الذى لمح أهمية الألوسى فأراد أن يخلد اسمه فاقترح على الشيخ علاء الدين أن يكون تلميذه الألوسى مدرسا فى مدرسة جامع الياجه جى فى محلة (سبع البكار) فى الرصافة (٩) فأشار الأستاذ على التلميذ الذى صار أستاذا ، أن يدرس فى المدرسة المذكورة فانصاع له وجلب تلامذته من مدرسته التى كانت فى بيت خاله ، وعمره إذ ذاك عشرون سنة ... وقد رأى التلاميذ عجبا فى مدرسة الياجه جى إذ الراحة متوفرة والمكان واسع ، والتقدير موجود ، فذاق الألوسى أول أفاويق السعادة ونال شيئا مما كان يطمح له ويأمل ، ولكن القدر كان له فى حرب دائم متواصل إذ نظم أحد التلامذة أبياتا من الشعر وصف فيها المدرسة الجديدة وأناقتها وقارن بينها وبين مدرسة الراوى ، فوجد حساد الألوسى منفذا للافتراء ، وأنه سب خاله الحاج عبد الفتاح فشاغب عليه الحساد ، وأرادوا أن يخرجوه من مدرسة الياجه جى بحجة السب ! ولما لم ينالوا ما أرادوا استعانوا بمفتى الحنفية ومفتى الشافعية لغاياتهم هذه ، كما استعانوا بمحمد الكركولى أحد المتنفذين ببغداد ، وذهبوا هم وأنصارهم إلى الوالى داود فتكلم نيابة عن الجمع الحاشد الكركوكى المشهور بابن النائب الذى يضمر للألوسى الحسد والعداء ، فحاك وأصحابه دسيسة جديدة وهى أن أبا الثناء قد سب الإمام ابن حجر أثناء وعظه فى جامع القمرية فى الكرخ ، فلم تنطل الفرية على الوالى الداهية ، فأجابهم بما أسكتهم وأخزاهم ! وهنا أنقل للقارئ جواب الوالى لابن النائب الكركوكى ، ولكن على لسان المدعى عليه ، أو المتهم فى لغة القانون وهو هنا الألوسى محمود إذ نقل الجواب بإنشائه البليغ الرائع فقال (١٠) (إن ابن الألوسى شافعى المذهب ، فيبعد من طريق العقل أن يسب ذلك العلامة وهو بين أئمة . مذهبه

(٥) مقامات الألوسى : (ص : ٢٥)
(٦) نجوم أدبى رقم مخطوط
(٧) أعلام العراق (ص : ٢٠)
(٨) مقامات الألوسى
(٩) المصدر السابق
(١٠ مقامات الألوسى

المشار إليه بأكف الفضل ، وأعجب من ذلك وأعظم ، تأخير شكوى هذا الذنب الواقع فى رمضان إلى المحرم ، فما أظن ذلك إلا افتراء ، أصر على إنشائه قهرمان الحسد ، وكم جمع الحاسد جيوش البغى على المحسود وحشد ، فبالله تعالى عليكم إلا ما تركتم هذا الرجل وحاله . وأرى الأحرى بكم أن تصالحوه وحاله ... فإنى أظن أن يأتى على الرجل زمان ، يشار إليه بين علماء الإسلام بالبنان .) وبعد أن أطفئت هذه الفتنة التى واجهها الألوسى بصبر وثبات ، والتى انتهت بحرمانه من التدريس فى مدرسة الباجه جى ، كان أنصار الألوسى يعملون على إيجاد وظيفة تليق بمكانة أبى الثناء وفضله . وأخيرا وجدوا ضالتهم بمساعى الزعيم الشعبى (عبد الغنى جميل زاده) رئيس الحزب الذى يضم أحرار البلد أمثال السيد الألوسى ، فتم على يد الزعيم عبد الغنى إزالة ما وقع سابقا ثم عين بمساعدة أنصاره مدرسا وواعظا وخطيبا فى جامع أمين الباجه جى شقيق نعمان رئيس صنف التجار ، الواقع فى محلة رأس القرية . . . وبقى يدرس ويربى الجيل الجديد تربية العالم الخبير القدير ، ولاقت دروسه قبولا واستحسانا من تلامذته ومريديه ، وكانت بغداد فى أواخر عهد داود تضم نهضة أدبية يرعاها القصر ويحميها السلطان . ولم يكن الألوسى مع قيامه التام بشؤون التدريس والخطابة والوعظ والإرشاد بالرجل القانع القعدة شأن أكثر المعممين ورجال الدين فى عهده بل كان على العكس رجلا طلاعة يستمع لتيار الرأى العام ، ويستجيب لداعى القضايا العامة ، وكان أكثرية البغادده يناصرون داود باشا فى الانفصال عن قاعدة الخلافة والاستقلال بالعراق عن الدولة العثمانية ، والألوسى كان من دعاة هذه الفكرة ودليل ذلك حبسه بأمر الوالى الجديد على رضا فى سجن نقيب الأشراف

و — تصدره للإفتاء :

بقى الألوسى بسجن النقيب يتجرع الغصص ويتحمل النكبات منتظرا الفرج من الله مترقبا أماديل القدر . . . وتم له ما أراد إذ طلب منه محمود النقيب رئيس النقباء الوعظ فى جامع الشيخ عبد القادر الجيلى القريب من دور نقباء بغداد وكأنه وضعه بسجن ثان قريب من السجن الأول ، فقبل الألوسى الطلب وأجاب النقيب بما أراد ، وإن كانت العيون يحصون عليه أنفاسه ، ويعدون عليه حركاته . ووعظ فى جامع الجيلى أكبر جوامع بغداد وأشهرها ، فسار اسمه وذاع صيته وقصده القاصى والدانى من الأهلين والموظفين والعسكريين والعلماء ، ليستمعوا إلى مجلس وعظه ويستفيدوا من حسن محاضرته فطرقت أذن الوالى على رضا الشهور بحريته الفكرية وحبه العلماء شهرته واسمه ، فقصد جامع الجيلى وذلك فى أواخر رمضان ليشاهد هذا الأعجوبة الذى تم سجنه على يده فخلب لبه وأسر سمعه فرضى عنه وصالحه وأمر أحد خاصته المدعو (عبد الرحمن الأعظمى) أن يجلب الألوسى معه إلى قصره — قصر الوالى — فى اليوم الثانى من عيد الفطر . وعند حضوره فى اليوم الموعود قربه إلى مجلسه وحادثه بأرق الحديث وطلب منه التردد إلى قصره مرتين فى الأسبوع ، فكان الألوسى يزور الوالى الذى أعجب به كل الإعجاب (١١) وأعاد إليه وظائفه التى اغتصبت منه فألف له الألوسى رسالة جيدة أثبتت أن الألوسى من فلاسفة الحكم ومن ذوى الرأى فى السياسة ، فأجازا الوالى أبا الثناء بتولية أوقاف مدرسة جامع مرجان وتولية هذا الجامع مشروطة لأعلم أهل البلد (١٢) وذلك فى ١٧ محرم سنة ١٢٤٩ ونال قبل التولية خطبة الجمعة والعيدين فى جامع الجيلى ، وبعد أن نال التولية أخذ يفر إلى جو الرفعة والكرامة — كما قال حفيده محمود شكرى الألوسى — وفتحت له باب الأمل التى داعبها منذ كان يافعا فنال رتبة علمية لها مغزاها العالى فى ذلك الوقت وتلك الرتبة العلمية هى (تدريس الآستانة) التى صدرت بمرسوم سلطانى (١٣) ولم تقف رتبه العلمية عند هذا الحد العظيم ، بل نال أقصى ما يناله رجل العلم من الرتب العالية؛ إذ أن صديقه الشاعر العمرى وصديق آخر بشراه أن الوالى على رضا سينصبه مفتيا للمذهب الحنفى ، وكان سروره عظيما جدا إذ ليس بزة الإفتاء فى ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٥٠ (١٤) وبعد

---

(١١) مقامات الألوسى

(١٢) أعلام العراق (ص : ٢٣)

(١٣) المصدر السابق

(١٤) المسك الأذفر (ص : ١٠)

ما شاع هذا الخبر الذى فرح به أنصاره وأصحابه واستاء له أعداؤه وحساده ، هنأ الشعراء والأدباء والعلماء الذين شغفوا بالألوسى الكبير حبا وولاء . وها نحن ننقل أبياتا من قصيدتين لشاعرى العراق فى ذلك الحين وهما عبد الباقى العمرى وعبد الغفار الأخرس يؤرخان الإفتاء ويمدحان المفتى . قال الأول :

كالبدر طلعته والبحر راحته ... والعزم والحزم مثل النار والجبل
لو شاء باحث أهل العلم قاطبة ... عن المذاهب والأديان والملل
يامن به لاذت الفتوى فسجلها ... وصانها عن جميع الزيغ والزلل
من عين كل عدو يا مؤرخه
(محمود) قد يحرس الفتوى بعين (على)

وفى عجز البيت الأخير الذى أرخ سنه الفتوى نوبة لطيفة باسمى الوالى والمفتى . وقال الأخرس البغدادى :

إن الشريعة فيك لا بس تاجها ... قوم وحامل سيفها صنديد
وتنوف فى كل العلوم فأرخوا ... (نوفت بالإفتاء يا محمود)

والألوسى الكبير بعد أن نال هذه الرتب العالية التى لا تصلح إلا له ، وليس يصلح إلا لها — كما قال أبو العتاهية الشاعر وردت أسئلة علمية دقيقة من علماء فارس وفطاحل إيران ، إلى علماء بغداد يطلبون إجابتها وحل غوامضها ، فأجاب عليها شهاب الدين مفتى بغداد ، جوابا شافيا مقنعا أسكت السائلين والمتحدين برسالة علمية جليلة ، وبعد أن ذهب رسول علماء فارس جاءت الألوسى الكبير رسالة تهنئة مشفوعة بوسام سلطانى (نشان (١٥) افتخار) من (استانبول) فزين صدر الألوسى بالوسام ، أو ازدان الوسام بصدر الألوسى

تقلد الألوسى رتبة الإفتاء ، ونال الرتب العلمية العالية ، وهو لم يتجاوز الثلاثين ربيعا إلا قليلا ، فكانت صفحة جديدة من حياته تطفح بالهناء والسعادة ، نالها الألوسى الكبير — وهو الأهل لها — بصبره ومصابرته وقابلياته العلمية . وفى هذه الفترة من حياة الألوسى اشترى دارا فخمة فى أشهر محلات بغداد (محلة الساقولية) كما جلب له الخدم والحاشية ، على الأصول المتبعة فى عصره . والألوسى مع ما نال من اسم وثراء ومكانة اجتماعية ، لم ينس إخوانه وأبناءه رجال العلم وطلبته ، بل على العكس ازدادت رعايته لهم ، وعنايته بهم ، إذ خصص قسما من داره الكبيرة للطلبة الغرباء يقدم لهم فيه الغذاء والكتب والخدمات الأخرى مجانا ومن جيبه الخاص فأمست داره مدرسة هو عميدها وبيته بنايتها كما أمست بغية لطلبة العلم من سائر أنحاء العراق والأقطار الإسلامية (١٦) وقد بلغت دروسه أربعة وعشرين درسا فى اليوم (١٧) وكانت داره العامرة مجمعا علميا وندوة للشعر ، يحضرها العمرى وعبد الغنى والأخرس وأحمد عزت والتميمى والواعظ وغيرهم وغيرهم ، من جلة القوم وأعيان البلد .. وفى أواخر فترة الإفتاء بدأ بتأليف تفسيره الخالد (روح المعانى) وكان هذا سببا لأن تصبح دروسه فى اليوم ثلاثة عشر درسا ، وبقى يفتى ويدرس ويؤلف مدة زادت على ثلاث عشرة سنة .

(١٥) المسك الأذفر (ص : ١٣)

(١٦) أعلام العراق (ص : ٢٤)
(١٧) المسك الأذفر (ص : ١٣)

الكلام صلة — محمود الصباغ

تاريخ الأدب العربى

للاستاذ أحمد حسن الزيات بك

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر، بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز، وتحليل مفصل، واختيار موفق، ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع إحدى عشر مرة فى ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد